1

الفن في خدمة السلطة

(للحق فان الفن والفنان المصري قد لعبـا دورًا إيجابيًـا للغاية في خدمة القضايا الوطنية في مصر، ويشهد المراقبـون المحايدون بأن هذا الدور الذي لعبه الفن والفنان كان بعيدًا عـن أيـة متـاجرة أو مزايـدة ولا بهـدف إلى التقريـب مـن السلطة)

"مهما حاولنا أن نتخيل إلى أي مدى استفادت الثورة المصرية من الفن، فإننا لن نصل إلى تحديد درجة هذه الاستفادة بدقة! فالفنون على اختلاف أنواعها: سينما، مسرح، وغناءً، لعبت دورًا خطيرًا في الترويج لقيم ومبادئ الثورة الجديدة، وكانت الثورة من الذكاء بحيث عرفت حجم هذا التأثير من جانب الفن على الجماهير، فراحت تمدّ يدها لخلق نوع من التعاون المشترك – المثمر – بينها وبين أنواع الفنون المختلفة".

ففي الغناء كان صوت عبد الحليم حافظ، ذلك الموهوب العبقري، هو المتحدث الرسمي – أو كاد أن يكون – وبأفكار العباقرة: صلاح جاهين، وعبد الرحمن الأبنودي، وغيرهما، وألحان المبدعِين: كمال الطويل: والموجي: وبليغ حمدي، لدرجة أن حدَثًا خطيرًا وجليلاً مثل تأميم قناة السويس، تعيشه الأجيال الحالية بصوت "حليم"، وتتفاعل معه أكثر من تفاعلها به من خلال صفحات كتب التاريخ، أو بعبارة أخرى، إن صوت حليم وصل أسرع وأبسط من أصوات المؤرخين: "صرخة أطلقها جمال.. إحنا أممنا القنال".. فتهلل الناس فرحًا، وراحوا يغنون لزعيمهم خلف مطربهم: "ضربة كانت من معلم.. خلّت الاستعمار يسلِّم". ونلاحظ أنه إذا كان "حليم" هو نجم هذه المرحلة بغير منازع، فإن أستاذه محمد عبد الوهاب قد مجّد أشخاصًا أكثر من تمجيده لمرحلة بعينها، حتى إنه سُمّي "مطرب الأمراء والملوك"، وإن كان قد لعب الدور نفسه بعد الثورة. وقد فطنت الثورة – وخصوصًا زعيمها الحقيقي جمال عبد الناصر – إلى أهمية الدور الذي يلعبه فن الغناء، فتم – بشكل أو بآخر – تقوية صوت حليم ومساندته باعتباره هو نفسه يمثل نموذجًا لمن جاءت الثورة من أجله.. شاب فقير، ضعيف، لا سند له، لا يملك إلا موهبته، فكانت الثورة بديلاً عن الأب الذي فقده قبل أن يرى كلاهما الآخر. كما نعرف جميعًا الدور الذي لعبته السيدة أم كلثوم – كوكب الشرق – في دعم قضية بلدها أثناء "المجهود الحربي"، وكان ذلك أيضًا هو دعم

للسلطة الوطنية الموجودة وقتها، ولقد قال لي السيد محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم، والذي لازمها كظلها طوال ربع قرن من مجدها: إن ناصر كان دائم التردد على أم كلثوم، وكان يأتنس بالحوار معها، كما أكد على العلاقة القوية بينهما.

وفي المسرح كان هناك مسرح المبدع الكبير الراحل سعد الدين وهبة، ونعمان عاشور، وتوفيق الحكيم، وألفريد فرج، ومعهم نجوم ونجمات المسرح المصري الذين ساهموا في تشكيل وعي الجمهور المصري في عهده الجديد، ونستطيع أن نؤكد أن الفنون قد استفادت بالقدر نفسه من الثورة، فأصبح هناك رعاية أكبر لها من قِبل الدولة ومؤسساتها، فنضجت الفنون وتألقت وأينعت، وأصبحت فنون الستينيات هي النموذج الذي نسعى لإحيائه محل معظم فنون التسعينيات التي اتسمت في معظمها بالتدني.

كما لم تكن السينما بعيدة عن التأثير والتأثر بالثورة، بل كان النموذج هنا أوضح، باعتبار السينما هي ذاكرة الأمة ومرآتها، وهي الأكثر مقدرة على التأثير في الشعوب، فحدث أن اهتمت الثورة بالسينما منذ اللحظات الأولى؛ ففي الثامن من شهر أغسطس عام 1952، وبعد أيام من قيام الثورة المصرية، أصدر السيد محمد نجيب – المسئول الأول عن الثورة وقتها – بيانًا للسينمائيين كان عنوانه "الفن الذي نريده"، جاء فيه: "إن السينما وسيلة من وسائل التثقيف والترفيه، وعلينا أن ندرك ذلك؛ لأنه إذا ما أسيء استخدامها، فإننا سنهوي بأنفسنا إلى الحضيض، وندفع بالشباب إلى الهاوية".

وكان ذلك اعترافًا من الثورة بأهمية الفن (السينما) في الارتقاء بالشعب وخاصة الشباب منهم، ولذلك فقد كان هذا بمثابة إعلان رسمي باحتضان الثورة لفن السينما، حتى إنه جاء في البيان السابق الإشارة إليه صراحة أن: "السينما لها مكانتها عند النظام الجديد". وكان أيضًا انتظارًا وترقبًا لأن تعلن السينما ولاءها ودعمها للنظام إذا ما كانت تؤمن بمبادئه. ويبدو أن السينما قد استقبلت الرسالة بوعي وبفهم لطبيعة دورها، ففي ذكاء وسرعة شديدين، بدأ السينمائيون يتسابقون بالمشاركة في دعم وتأييد النظام الجديد وما يحمله من أفكار عن العدالة والحرية. ولذلك نجد اللواء محمد نجيب يسارع بإصدار بيان جديد في يناير من العام التالي مباشرة 1953 – أي بعد خمسة أشهر من بيانه الأول – يقول فيه بالحرف الواحد: "لقد

استيقظت المعاني في نفوس الفنانين، فأدركوا واجبهم، ووقفوا جميعًا في صفوف النهضة يساهمون في تشكيل البناء الجديد.. بناء النهضة".

وبالتالي لم يكن مستغربًا أن تشكل الثورة لجنة رأسها المرحوم وجيه أباظة، كانت مهمتها ترتيب لقاءات بالسينمائيين تمهيدًا لوضع تصور للدور الذي ستقوم به السينما المصرية. وللحق – فإن السينما المصرية وصُنّاعها – قد تسابقوا للوقوف إلى جانب العهد الجديد، البعض عن إيمان واقتناع، والبعض الآخر لم يَخْلُ موقفه من شبهة مجاملة، وهو ما جعل ناقدًا محترمًا هو الراحل سامي السلاموني يكتب في نشرة نادي السينما (بتاريخ 1979/11/19) قائلاً: "إن موقف السينما المصرية من التاريخ موقف غير أخلاقى"! المهم أن الأفلام المهمة التي بدأت تسجل معارك الثورة مع قوى الخارج – ممثلة في الاستعمار – والداخل – ممثلة في بقايا الإقطاع والرجعية – ظهرت مبكرًا في فيلم مثل "بورسعيد" الذي جاء بتكليف خاص من الزعيم جمال عبد الناصر إلى "نجم السينما المحبوب" فريد شوقي – كما وصفه عبد الناصر – وبعد الانتهاء من تصوير الفيلم الذي نعرف جميعًا قصته وأحداثه، رأى فريد شوقي أن يبعث برسالة شخصية إلى جمال عبد الناصر قال فيها: "كان هناك دور ينتظر الفن، دور أكبر مما قام به خلال المعركة، وهو يسجل وحشية المستعمرين، وبربريتهم، وخِسّتهم، وفظائعهم، وقررتُ أن أنتزع للفن شرَف القيام بهذه المهمة الجليلة، فأنتجتُ فيلم بورسعيد الذي أقدمه اليوم مسجلاً فيه ما ارتكبته قوى البغي والعدوان من همجية وبربرية. وأخيرًا.. أرجو أن أكون قد أديتُ بهذا الفيلم ما ينبغي أن أقوم به كمواطن مصري يؤمن بالحرية. توقيع: فريد شوقي".

الجميل أن السلْطة بادلت فريد شوقي مشاعره، فكتب أنور السادات عضو مجلس الثورة كلمة طويلة يمتدح فيها الفيلم، جاء في آخرها:

"هذا هو فيلم بورسعيد الذي ستلمسون فيه الوطنية والإباء والتضحية والفداء".

وكانت هذه بدايات علاقة متينة بين أنور السادات وفريد شوقي، استمرت حتى أصبح السادات (رئيسًا) لجمهورية مصر العربية، في حين أصبح فريد (ملِكًا) للشاشة، فحرص السادات على تكريم فريد في أحد أعياد الفن، ولعل البعض لا يزال يتذكر كلمة السادات له يومها: "أبكيتنا يا فريد" كان يقصد دوره في فيلم "لا تبكي يا حبيب العمر"، وهو ما يؤكد استمرار العلاقة بين الفن والسلطة، وإن كان معروفًا عن الرئيس السادات أنه كاد أن يصبح ممثلاً بعد أن تقدم بالفعل لإحدى المسابقات الفنية.

وفي العام نفسه كان هناك فيلم آخر شهير جدًّا هو "رُدّ قلبي"، الذي جمع بين أربعة ضباط هم: المؤلف يوسف السباعى، والمخرج عز الدين ذو الفقار، واثنين من أبطاله هما: الفنان أحمد مظهر ضابط سلاح الفرسان، والفنان صلاح ذو الفقار ضابط البوليس الذي قال لي في صيف عام 1988: إنه لم يخطر بباله التمثيل لولا شقيقه عز الدين ذو الفقار الذي طالبه بالاستقالة من البوليس والعمل بالسينما، رغم أن صلاح كان معلمًا في أكاديمية الشرطة، وكرر لي إنه يعتزّ كثيرًا بهذا الفيلم، في حين أكد لي الفارس أحمد مظهر المعنى نفسه.

وكم كان الفنان المتميز كمال يس مؤثرًا عندما قال عبارته الشهيرة في الفيلم: ("إنجي بتاعتي تعباني يا علي")، وطبعًا الكل يعرف أن "إنجي" التي يقصدها كمال يس الذي كان بدوره يمثل شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، إنجي التي يخصّها بحبه وقلقه وسهره لتخليصها من مغتصبيها، هي.. مصر.

وكم أشعلت مثل هذه المشاهد روح الوطنية في قلوب الشباب المصري، وألهبت نار الحماس والغيرة على البلد وشعبه، وكم تأثر المشاهدون بأفكار الحرية والعدالة والوطنية في أفلام مثل "في بيتنا رجل"، "غروب وشروق"، بل وحتى في أفلام حملت الطابع الغنائي مثل "ألمظ وعبده الحامولي"، الذي كشف عن بعض مفاسد النظام البائد، وغيرها من الأفلام المهمة التي تعدّ علاماتٍ في تاريخ السينما والوطنية المصرية في آنٍ واحد.. وبعد ذلك لا تسأل: إلى أي مدى استفادت الثورة أو السلطة من الفن؟ ولا ما الذي استفادة الفن من السلطة؟ فالفن محتاج دائمًا إلى سلطة واعية تدعمه، وقوية تسانده، دون أن تخشى على نفسها من اقتلاع الفن لها إذا كانت جذورها غير ممتدة في قلب شعوبها.

والفن قادر على ذلك. وللحق فإن الفن والفنان المصري قد لعبا دورًا إيجابيًّا للغاية في خدمة القضايا الوطنية في مصر، ويشهد المراقبون المحايدون بأن هذا الدور الذي لعبه الفن والفنان كان بعيدًا عن أية متاجرة أو مزايدة، وليس بهدف التقرب للسلطة.

* * *

ولعل أوضح مثال على كلامنا هذا الفيلم الجميل الذي يحمل عنوان "أيام السادات"، الذي خرج علينا به صنّاعه وعلى رأسهم الفنان الجميل "أحمد زكي"، الذي استطاع أن يضع اسمه في مقدمة مَن لعبوا الأدوار التاريخية منذ جسد شخصية عميد الأدب العربي الثائر "طه حسين" في المسلسل التليفزيوني الذي حمل عنوان السيرة الذاتية لمفكرنا الراحل "الأيام"، ثم

أكد الفنان المبدع أحمد زكي على مقدرته في استحضار روح الشخصية عندما فاجأنا بتحضير روح الزعيم الراحل "جمال عبد الناصر" في السيناريو المحكَم الذي كتبه السيناريست المبدع محفوظ عبد الرحمن وبتفوق على النفس، كانت مفاجأة "زكي" بهذا الفيلم المشار إليه "أيام السادات"، الذي أعاد السادات "حيًّا" على الشاشة لمدة تزيد على الساعات الثلاث. ومهما اختلف البعض، أو خالفوا شبه الإجماع، على جمال وفائدة الفيلم – وهو ليس مجالنا – لكن يبقى السؤال الذي يقترب من موضوع هذا الكتاب: ماذا استفاد أحمد زكي – كإنسان وليس كفنان – من تقديم فيلمين عن زعيمين راحلين؟

بالطبع فإنه لم يستفد شيئًا؛ لأنه لم يتقرب من سلطة، ولم يستفد من سلطان؛ لأن العصريين انتهيا تقريبًا ولم يعد أصحابهما يملكان أن يمنحا أو يمنعا. إذًا فهذا هو دور الفنان الحقيقي والفن الحقيقي، يقدم شهادته على التاريخ وعلى الأحداث، متجردة من أية حسابات إلا حساب الضمير.

وفي هذا السياق فإننا نقدّر ونحترم بشدة هذا التكريم رفيع المستوى الذي منحته – السلطة – ممثلة في أعلى مستوياتها، عندما أمر الرئيس حسني مبارك بتكريم أسرة فيلم "أيام السادات"، بل وقلّد بنفسه صنّاع الفيلم الأوسمة من أرفع الدرجات. ولم تكن "السلطة" في حاجة إلى ردّ الجميل للفن – ممثَّلاً في هذا الفيلم السينمائي – ولكنها انتبهت – وهذا شيء جميل للغاية – إلى تعبير الفن بهذا المستوى الراقي والإنتاج السخي، لفترة ما من تاريخها، ورمز من رموزها، مهما اختلفت حولهما الآراء، أو تضاربت الشهادات، فاستحق صنّاعه التكريم المناسب.

* * *

إذا كان ما سبق يدخل في نطاق العمل المشروع للفن والفنان، إلا أن هناك – مع الأسى والأسف – أدوارًا غير مشروعة، اختلط فيها الأمر على "الفنان"، ليس في مصر وحدها، بل في هوليوود أيضًا؛ فلم يقنع بعض الفنانين والفنانات من هنا وهناك بالقدْر الذي حققوه من الشهرة، فراحوا يبحثون عن "النفوذ"، في حين سعى بعضهم إلى "الإثارة"، فراحوا يحومون كفراشات ملونة حول "السلطة"، ولم يتبينوا – لفرط سذاجتهم – الفارق بين الضوء الأخضر الذي يسمح لهم بالعبور و"النفاذ"، والضوء الأحمر الذي يحذر من الاقتراب ويعلنها منطقة "نفوذ"! تصوَّر بعض الفنانين – ومن حسن الحظ أن عددهم كان قليلاً – أنهم

يستطيعون "اللعب مع الكبار"، مع السلطة، بل إن بعضهم كان أكثر تهورًا فحاول اللعب مع سلطة من نوع أخطر مثل عصابات المافيا، كما في حالة المطرب والسينمائي الأمريكي الشهير "فرانك سيناترا"، أما "مارلين مونرو" نجمة الإغراء اللعوب، التي ظنت أنها ما دامت تستطيع رفع ذيل فستانها بسهولة ودون خجل ليلتقط المصورون صورًا تذكارية لملابسها الداخلية، ظنت واهمة أنها تستطيع بالسهولة نفسها أن تهدد الكبار جدًّا، وأن تفضح بلدًا بحكامها!

وفي مصر حاول البعض اللعب مع الكبار تقليدًا لنجوم هوليوود الكبار، أو محاولة للانغماس في "لعبة".. والفن لعبة جميلة وهادفة، أو خلقًا للإثارة والمتعة، أو طلبًا لشهرة أو نفوذ..

أصارحكم.. إنني في أثناء بحثي عن المادة الرئيسية لهذا الكتاب، كنت أتوقف طويلاً قبل تحليل كل شخصية.. كنت أحاول التعاطف مع بطل كل حكاية من فصول هذا الكتاب.. كنت أشفق على بعضهم.. نعم.. كان هذا يحدث.

كنت أتوتر وأنا أسرد سطور كل فصل في هذا الكتاب، وكأنني أكتب سيناريو فيلم سيخرجه من جديد نجم الإثارة الأول "ألفريد هيتشكوك"، كان يحدث هذا وربما أكثر.

ولكن "التعاطف" لم يكن يأتيني في معظم هذه الحالات.

كيف أتعاطف مع ممثلة – أو ممثل – مطربة – أو مطرب – يتمتعون جميعًا بالوسامة، وبقدر لا بأس به من الشهرة، كانت تزيد مع الأيام بدون شك، خاصة مع توافر الموهبة؟

كيف أتعاطف، وبالتالي أدعو قارئي الصديق لأن يشاركني التعاطف، مع هذا الفنان وتلك الفنانة التي راحت تخلع نعليها وتملؤهما بالتراب ثم تنهال به على تاريخها، وربما – عفوًا كل العفو – على جمهورها الذي صدَّقها ومنحها تاج النجومية؟!

تترك بإرادتها هذا الفن الجميل الذي يمكن أن تغير به خريطة العالم، وتترك مواهبها التي حباها بها الخالق، وتذهب إلى أقرب سرير – عفوًا مرة أخرى – وتلقي بجسدها عليه عارية الملابس والأخلاق، لترتمي تحت أقدام مسئول طلبًا لنفوذ أو تبركًا بسلطان.

ولا نتخيل – في هذا السياق – ما قيل عن عمل بعض الفنانات مع جهات أمنية – مثل المخابرات في فترة من الفترات – في مهمة جمع المعلومات، وبوسائل لا تليق بفنانة أو غير فنانة، ما دامت تحترم نفسها وجسدها.

في الحالات السابقة كلها يكون الخاسر هو الفنان الذي يبغي دورًا غير دوره، وعملاً يخاصم كرامة الفن، أما الفن فهو براء من مثل هؤلاء، وهم – بعددهم المحدود – لا يشكلون أي تهديد لسمعة الفن والفنان، فهم ليسوا أكثر من مشهد فاسد في فيلم ممتلئ بالأحداث الرائعة.

* * *

ولأن الفن براق، وكما أنه يجذب الفراشات الملونة فإنه يجذب إليه أيضًا الأنظار بقوة، مستمتعين بالنظر الدائم إليه وإلى فراشاته الجميلة، فإن هذه الفراشات الملونة أصبحت مادة للأحاديث والمسامرات والأخبار.. وهذه الأخبار إن لم تُوجد فإنها تُخلق خلقًا.. ولذلك لم تَسْلم العديد من الفراشات الملونة من الأخبار الكاذبة، والشائعات الظالمة، حتى نالت من كثير من الفراشات وكادت تمزق أجنحتها.

فمن بين الفنانات والفنانين الذين اقتربوا من وهج ونار السلطة من طالتهم الشائعات وتحدثت عن أشياء كثيرة – ربما لم تحدث – على أنها وقائع وأسرار وكواليس لا يأتيها الباطل أبدًا.

كما أن مِن بينها – الفراشات الملونة – مَن اقترب من السلطة فأفادها، كما في حالتي السينما المصرية وأفلام الثورة، وحالة الفنان العندليب عبد الحليم حافظ الذي يعدّ بحق أجمل أغنيات الثورة.

* * *

لعل الهدف من هذا الكتاب – والنتيجة في الوقت ذاته – هي بيان أن الفنان له مجال وله أدواته في التعبير عن قضايا وطنه، عن أحلام شعبه وهواجسهم أيضًا، فإذا كان ولا بد أن يقترب من السلطة – أي سلطة – عليه أن يكون حذرًا، فهذا ليس ملعبه، فإذا اقترب فليكن ذلك ليعبر عن رأي الناس وليس عن رأي الحكام. وليذكر أن ضوء السلطة الباهر يحرق الفراشات الملونة التائهة.